فلسفة الحكم عند المماليك بين القوة والتوريث

أ . د عمار مرضي علاوي
الجامعة العراقية / كلية الآداب / قسم التاريخ
٠٧٩٠٣١٧١٠٧٦
Ammarmardhi@yahoo.com

الملخص

تدور فكرة البحث حول مسألتين متأصلتين في النظام المملوكي ، باعتبار مدار الدولة قائمة على الفكرتين المتناقضتين ، فالدولة المملوكية هي نتاج ما قبلها من الدول لكنها ذات طابع عسكري ، أي جذورها ونشأتها عسكرية .

الفكرة الاولى هي القوة التي اتسم بها المماليك ، وقد كانت شعارهم في قيام الدولة ، إذ هي العصبية التي جمعتهم وليس النسب ، فكان منطق القوة عندهم يدور حول امكانية المملوك (الامير وما شابه ذلك) أن يجمع أكبر عدد ممكن من الجنود ويكوّن بهم قوة عسكرية تستطيع من فرض وجودهم والسيطرة على المشهد السياسي . وهذه القوة مرهونة بالمقبولية لدى عامة المماليك ، فضلاً عن الانجاز العسكري في الميدان .

أما الفكرة الثانية الوراثة ، ولعل ما يميز هذه الدولة عدم اعترافها بنظام الوراثة على الرغم من وجود سلاطين جاءوا عن طريق الوراثة ؟ إلا أن ذلك لا يعبر عن ايمان المماليك بها ، بل أنها جاءت فوق ظروف معينة سرعان ما تلاشت تلك الفكرة ، وحتى من جاء عن طريقها لم تكن سلطنته قوية أو مستمرة لمدة من الزمن . لذلك نرى أن الدولة سارت وفق منطق القوة على حساب الوراثة التي كانت طارئة .

Mamluks Philosophy of governance، between the power and inheritance

Prof. Dr. Ammar Mardhi Allawi
College of Arts
Al-Iraqia University

Summary

The idea of research revolves around two issues rooted in the Mamluk system, considering that the state's orbit is based on the two contradictory ideas. The Mamluk state is a product of the states that preceded it, but it has a military character, that is, its roots and origins are military.

The first idea was the power that characterized the Mamluks, and their motto was in the establishment of the state, as it was the nerve that brought them together and not lineage, so the logic of power for them revolved around the ability of the mulk (the emir and the like) to gather the largest possible number of soldiers and form with them a military force that can From imposing their presence and control of the political scene. This force depends on the acceptability of the Mamluk commoners, as well as the military achievement in the field.

As for the second idea of heredity, and perhaps what distinguishes this country is its failure to recognize the inheritance system despite the presence of sultans who came through heredity? However, this does not express the Mamluk's belief in it. Rather, it came over certain circumstances, and that idea quickly faded away, and even those who came through it were not strong or continuous for a period of time. Therefore, we see that the state followed the logic of power at the expense of heredity that was emergency.

المقدمة

تعد فلسفة الحكم من المواضيع المهمة التي تعبر عن طبيعة نشوء الدولة والاتجاهات التي رافقت قيامها ، مروراً بمستقبلها وأثر ذلك على مسارها .

والباحث في ميدان الانظمة السياسية للدول الاسلامية ، يجد أنّ هناك تبايناً في طبيعة الاستقرار على نسق معين في الحكم ، فمنها ما كان قائماً على التوريث المطلق الذي يمكن ملاحظته في دولتي الامويين والعباسيين، وكذلك الحال مع الدولة الفاطمية في مصر . بينما نجد أن بقيام الدولة الايوبية منهجاً جديداً يتمثل في الجمع بين مسألتي النسب والقوة ، بمعنى أن الايوبيين اتخذوا شعار الدفاع عن مملكات المسلمين وصد العدو الصليبي أساساً لقيام دولتهم .
ودولة المماليك واحدة من تلك الدول التي كان لها فلسفة خاصة في طبيعة الحكم ، فهي كانت مختلفة عن بقية الدول باعتبار أنها دولة عسكرية النشأة ، الامر الذي أعطاها خصوصية في مجال المتغير والثابت .
في هذه الدراسة نحاول جاهدين أن نلقي الضوء على أهم مسألتين في نظام الحكم عند المماليك ، ألا وهي مبدأ القوة كأساس للحكم ، ومبدأ التوريث . بمعنى هل أن المماليك كانوا مؤمنين بكلتا المسألتين أم فضّلوا أحدهما على الاخرى ، هذا ما سيتم تناوله بشيء من التفصيل في الصفحات القادمة منه .

أولاً ـ مفهوم القوة وأثرها في قيام الدولة

ابتداءً يجب أن نلقي نظرة على مفهوم الدولة عند اللغويين والمؤرخين المعاصرين للمماليك ، فمثلاً ابن منظور[١] عرفها بأنها **" الفعل والانتقال من حال الى حال "** . كذلك الفيروز أبادي[٢] الذي جاء تعريفه أكثر دقة وتفصيل للمعنى المطلوب بقوله **" انقلاب الزمان والعقبة في المال "** . وهذا يعني أن المفهوم عندهم يوازي المفهوم الاصطلاحي لدى المؤرخين ، فالدولة مهما تكن لا بد لها من زمان ومكان للقيام . فابن خلدون[٣] يعرف ذلك قائلاً **" إنّ أحوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال ، وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار ، فكذلك يقع في الافاق والاقطار والازمنة ، والدول سنة الله التي خلت في عباده "** .
انفرد ابن خلدون[٤] في تفسيره لمصطلح القوة ودلالاتها في نشوء الدولة ، فمصطلح قوة الوازع ، الذي يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة ، حتى لا يصل أحد الى غيره بعدوان ، وهذا هو معنى الملك . وهذا يعني فلسفة لتبرير السلطة في المجتمع التي هي الملك على حد تعبير ابن خلدون ، لأن الاجتماع الانساني لا بد له من وازع الذي إما يكون **" بشرع مفروض من عند الله تعالى يأتي به واحد من البشر ، وأنه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزييف "**[٥] .

إلاّ أن ذلك الوازع ليس دائماً يكون عن طريق النبوة ، فقد **" تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه من قوة أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته "**[٦] .
والعصبية في المفهوم الخلدوني هي مرتبطة بالطبيعة البشرية التي يرى بأنها مزيج بين الخير والشر ، لما فيها من الحيوانية والبشرية ، إلاّ أن الشر أقرب اليها من الخير ، إذا لم يهذب بحكم ما في نزعتها الحيوانية من الظلم والعدوان **" ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض ، فمن امتدت عينه الى متاع أخيه امتدت يده الى أخذه الى أن يصده وازع "**[٧] .
ولعل تفسير ابن خلدون للملك السياسي ناتج عن مراحل تكوينية ، إذ يقول[٨] **" الرئاسة إنما هي سؤدد وصاحبها متبوع ، وليس له عليهم قهر في أحكامه ، وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر ، وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها ، فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس "** .

---

[١] جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) : لسان العرب ، دار صادر ، (بيروت : ١٩٦٨م) ، ج ١١ ، ص ٢٥٢ .

[٢] مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م) : القاموس المحيط ، تحقيق مكتب تحقيق التراث ، ط ٨ ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت : ٢٠٠٥ م) ، ج ١ ، ص ١٠٠٠ .

[٣] عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ /١٤٠٥م) : المقدمة ، دار العلم للطباعة والنشر (بيروت، ١٩٥٢) ، ص ٣٨ .

[٤] المقدمة ، ص ٧٢ .

[٥] المقدمة ، ص ٧٢ .

[٦] المقدمة ، ص ٧٣ .

[٧] المقدمة ، ص ٢٢٣ .

وهذا ما يفسر توجه المماليك الى منطق القوة والغلبة في التعامل مع الخصوم ، فضلاً عن ما وصلوا اليه من قوة أيام الدولة الايوبية ، وما امتازوا في ظلها من ميزات جعلتهم ينافسون الامراء ، بل حتى أنهم نازعوا الملك من توران شاه وريث الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولعل القوة هي عنوان نجاح العصبية ، والاساس في بناء الدولة **" وإذا كان الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة ، فمن كان من هذه الاجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشاً كان أقرب الى التغلب على سواه ، إذا تقاربا في العدد وتكافأ في القوة والعصبية "**[٩] .

والدولة لا تكون إلاّ عن طريق التسلط كما ذكر ابن خلدون بقوله[١٠] **" وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب ، والغلب إنما يكون بالعصبية "** .

وهذا ما ينطبق على المماليك عندما ارادوا تأسيس الدولة كان عن طريق الغلبة وتكوين العصبية من بني جنسهم وقتل توران شاه وتنصيب شجرة الدر سلطانة عليهم ، وكذلك مقتل قطز وتولي بيبرس ، وهو ما يعني تكريس القوة في سبيل الوصول الى السلطنة ، وتبلورت فكرة أساسية في المفهوم المملوكي للسلطة أنها لهم وحدهم يفوز بها أقواهم واقدرهم على الايقاع بالآخرين[١١] .

والدولة على اشكال منها الدولة الكلية هي حكم عصبية من العصبيات التي يتعاقب فيها الملوك ، أي أنها حكم أسرة معينة **" مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم ، أو بني أمية أو بني العباس كذلك "**[١٢] .

وفي ضوء الاطلاع على النصوص آنفة الذكر في تحديد مفهوم القوة وما حملته من معان ودلالات توحي الى أثرها في تكوين القوة المطلوبة لقيام الدولة ، يمكن أن نرجح التزام المماليك بالسلطة دون غيرهم ، أو على أقل تقدير الى النزعة العسكرية التي اتسموا بها منذ نشأتهم ، فنص المقريزي[١٣] يوضح ذلك بصورة جلية **" وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة ، أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ونزله في طبقات جنسه وسلمه لطواشي برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به** تعليمه **ما يحتاج اليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر اليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والاذكار ... وإذا ركبوا الى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم ، فينقل حينئذ الى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة الى أن يصير من الامراء ، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده في رماية النشاب ، وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل "** .

وهذا يعني أن الثقافة العسكرية المملوكية كانت تتضمن دور الصرامة وفيها أن الجندي لا يسمح له بالتحرك خارج الطباق ، وتفرض عليه واجبات قوية[١٤] .

وقد نتج عن هذا النظام العسكري الصارم نتيجتان ، الاولى أن الجمع بين التربية الدينية والتدريب العسكرية جعلا المماليك يتميزون بالحماسة والغيرة على البلاد والمقدسات الاسلامية ؛ والثانية هو أن رابطة الزمالة (الخشداشية) التي تربط الجنود فيما بينهم ، كانت أقوى من الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة[١٥] .

---

[٨] المقدمة ، ص ٢٤٤ .

[٩] المقدمة ، ص ٢٤٣ .

[١٠] المقدمة ، ص ١٦٥ .

[١١] قاسم ، الدكتور قاسم عبده : عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ط ١ (القاهرة : ١٩٩٨ م) ، ص ٨٢ .

[١٢] المقدمة ، ص ٤٧١ .

[١٣] تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف (بالخطط المقريزية)، الناشر مكتبة الآداب (القاهرة : د. ت) ، ج ٣ ، ص ٣٧٣ .

[١٤] سليم ، محمود رزق : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي مكتبة الآداب ، ط ٢ (القاهرة : ١٩٦٢ م) ، ج ١ ، ص٧٧ ، ص ٨٠ .

لذلك قيل أن بسبب هذه التربية الصارمة جعلت المماليك **" سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في اظهار الجميل ، ويردعون من جار أو تعدى ... "**[١٦].
فالمماليك لم يتمحوروا حول نظام معين في تولية السلطة سواءً حق شرعي موروث ، بل جاء اختيار السلطان عن طريق قوته ومواهبه وكثرة مماليكه ، فشرعيته تأتي في ضوء هذه العوامل التي تميزه عن غيره من المماليك[١٧] . لذلك كانت نظرة المماليك الى السلطان على أنه الاول بين أقرانه ، وكان عليه أن يشدد الرقابة على أنصاره ، إذ لم يكن في سلوك المماليك السياسي شيء أسهل عليهم من تبديل الولاء والتبعية ، فضلاً عن أن كلما كان للسلطان موارد مالية كلما كثر أتباعه وإذا عجز عن ارضاءهم ، كانت النتيجة هي إما عزله أو نفيه أو حتى قتله [١٨] .

ولعل أول تجربة في مجال قوة ورابطة العصبية بمفهومها المطلق هو قيامهم بقتل توران شاه عندما حاول ابعادهم عن مصدر القرار ، ومما ذكر في طريقة قتله ، ما رواه أبو شامة[١٩] أنه في يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م **" جلس توران شاه على السماط فضربه قسم من المماليك بالسيف فتلقاه بيده ، فقطعت بعض أصابعه فقام فدخل البرج ، فقام المماليك بالتسلح وأحاطوا خيمته وبرجه الخشب ، فقام بالدخول للبرج ، فحرقوا البرج بالنفط الذي أحرقه خارجا منه يناشدهم الله أن يكفوا عنه ، لكنهم لم يسمعوا له ، فدخل البحر إلى أن وصل الماء إلى حلقه فرجع فضربه الظاهر بيبرس بالسيف فرجع إلى الماء ، وقيل ضربة واحدة على عاتقه فنزل السيف من تحت إبط اليد الأخرى فوقع قطعتين "** .
ويرفدنا القلقشندي[٢٠] بنص يوضح طبيعة قوة المماليك ونجاح النظام السياسي في دولتهم بقوله **" وقد تنقّحت المملكة وترتبت ، فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب وتنضيد الملك وقيام أبهته ، ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها ، فسلكت سبيله ونسجت على منواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب ، وفاقت سائر الممالك ، وفخر ملكها على سائر المملوك "** .
وهذا يفسر لنا سر قوة المماليك وصمود ذلك النظام ، بوصفه مزيجاً وخليطاً من أنظمة الحكم التي سبقتهم . كذلك أورد المقريزي[٢١] نصاً على لسان السلطان المنصور قلاوون **" كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمّرت أسواراً وعملت حصوناً مانعة لي ولأولادي وللمسلمين، وهم المماليك "** . وهو بذلك يبين حقيقة القوة التي يستند عليها في تثبيت أركان الدولة وحمايتها من الاخطار ، بعد أن أكثر من شراء المماليك وتدريبهم ورعايتهم .

من الامور التي يمكن ملاحظتها على طبيعة المماليك أنهم لم يتأثروا كثيراً بعادات وتقاليد وقيم المجتمع ، على الرغم من أنهم كانوا خير مدافع عن المسلمين وحماية أراضيهم بل وطرد أكبر قوتين المغولية والصليبية ، بمعنى أن طبيعتهم المنعزلة والمغلقة كانت عامل سلبي في تفهم المنظومة القيمية والسياسية ، فقد أورد المقريزي[٢٢] نصاً يدل على ذلك **" واستقر رأي**

---

[١٥] قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، ص ٣٠ .

[١٦] المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٣ .

[١٧] عاشور ، سعيد عبد الفتاح : العصر المماليكي في مصر والشام ، النهضة المصرية ، ط ١ (القاهرة : ١٩٦٥ م) ، ص ٢٩٩ .

[١٨] زيادة ، الدكتور نقولا : دمشق في عصر المماليك ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٦٦م) ، ص ٢٤ .

[١٩] شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ، ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) : تراجم رجال القرنيين المعروف بالذيل على الروضتين , دار الكتب العلمية (بيروت : ٢٠٠٢م), ج٣، ص٢٠٥ .

[٢٠] أبو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) : صبح الاعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة: د. ت) ، ج ٤ ، ص ٤ .

[٢١] المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ .

[٢٢] المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٧٣ .

الناصر[٢٣] **على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشانهم فبدلت الأرض غير الأرض ، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم قدرا واخصهم وأشحهم نفسا واجهلهم في أمر الدنيا وأكثرهم إعراضا عن الدين "** .

وعلى هذا الاساس جاء المماليك بقاعدة أطرت حكمهم وجعلوها نظاماً وعرفاً متعارف بينهم ألا وهي (الحكم لمن غلب) فأصبحت بديلاً عن الشورى أو الوراثة ، غير ابهين بعلاقاتهم الودية التي أوصلتهم للسلطة ، فعند الشعور بالخطر لمجرد أن الشخص قد علت منزلته فذاك يعني زوال السلطان ، ومثال ذلك ما شعر به السلطان المعز أيبك تجاه فارس الدين أقطاي كبير المماليك في سلطنته ، فكانت النتيجة لمجرد شعوره بتنامي مكانته أمر في الثالث من شعبان سنة ٦٥٢ هـ /١٢٥٤ م ثلاثة من مماليكه وهم قطز وبهادر وسنجر الغتمي ، أن يقضوا على أقطاي في بعض دهاليز الدور التي بقلعة الجبل ، ولما مر بهم أقطاي ، ضربوه بسيوفهم وقتلوه [٢٤] .

وفي سلطنة المنصور بن المعز أيبك نجد أن القوة كانت هي من أطاحت به نتيجة ضعفه وكثرة انشغاله باللهو ، الامر الذي دفع قطز ومن معه من الامراء أن يطلب الملك فتم له ذلك بعد أن قام باعتقاله ونفيه الى دمياط[٢٥] .

وقد دل وصف ابن تغري [٢٦]على مبدأ القوة والغلبة التي هي صفة قيام دولة المماليك ، فقد شخّص الحالة وتبعاتها في سقوط الدولة وفساد أحوال مصر نتيجة لهذه السياسة " **والملك المظفر قطز هذا هو أول مملوك خلع ابن استاذه من الملك وتسلطن عوضه ، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك ، وتمت هذه السنة السينة في حاصد الى يوم القيامة ، وبهذه الواقعة فسدت أحوال مصر "** .

ولعل المثال العملي الاخر على قاعدة الحكم لمن غلب وظهورها بصورة جلية عند تولي الظاهر بيبرس السلطنة وما سبقها من أحداث جعلته يطبق هذه القاعدة ، فبعد أن سار السلطان المظفر قطز الى جهة الديار المصرية ، وعندما وصل الى القصير[٢٧] بطرف الرمل ، اتفق مجموعة من الامراء المماليك من بينهم الظاهر بيبرس على قتله ، والسبب في ذلك حنق بيبرس على قطز

---

[٢٣] الناصر : زين الدين أبو السعادات فرج بن السلطان برقوق ، تولى السلطنة يوم وفاة والده يوم الجمعة النصف من شوال سنة ٨٠١ هـ لم يتجاوز العشرة سنوات ، وتم عزله من السلطنة في سنة ٨٠٨ هـ ، ثم عاد للسلطنة مرة ثانية . ابن تغري بردي ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/١١٦٩م) : مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة ، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ، دار الكتب المصرية (القاهرة : د . ت) ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

[٢٤] أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) : المختصر في أخبار البشر ، ط١ المطبعة الحسينية (القاهرة: د. ت) ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

[٢٥] الدواداري ، بيبرس المنصوري (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م) : مختار الاخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ ، تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، الناشر الدار المصرية اللبنانية، ط١ (القاهرة : ١٩٩٣م)، ص ١٠ .

[٢٦] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١ مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة : ١٩٣٢م) ، ج ٧ ، ص ٥٦ .

[٢٧] القصير : موضع قرب عيذاب بينه وبين قوص خمسة أيام ، وبينه وبين عيذاب ثمانية أيام ، وفيه مرفأ سفن اليمن . ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) : معجم البلدان ، دار صادر (بيروت: ١٩٩٥م) ، ج ٤ ، ص ٣٦٧ .

لأنه لم يعطه حكم حلب ، التي أصبحت من نصيب علاء الدين صاحب الموصل [٢٨] ، فاستغلوا خروج السلطان للصيد منفرداً فضربه بيبرس بالسيف ، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه وقتلوه بالنشاب في السابع عشر من ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م[٢٩] .

بعد ذلك حصل نزاع وخلاف بين الامراء حيال من يلي السلطنة ، فذكر الامير فارس الدين أقطاي " ينبغي ألا يلي السلطنة إلا من خاطر بنفسه في قتل السلطان ، وأقدم على هذا الامر العظيم "[٣٠]. وروى المقريزي[٣١] أن أقطاي سأل الامراء من قتل قطز منكم " **فقال الامير بيبرس : أنا قتلته ، فقال الامير أقطاي : يا خوند اجلس في مرتبة السلطنة مكانه ، فجلس بيبرس** " .

بينما نجد أن ابن أياس[٣٢] قد ذكر لفظة القوة بقوله " **انه لما قتل قطز ساق الأمراء الذين اشتركوا في اغتياله وهم شاهرون سيوفهم إلى أن وصلوا إلى الدهليز السلطاني في الصالحية فجلس الأمير بيبرس بمرتبة السلطان واخذ الملك بالقوة** " .

وهي ذات العبارة التي أشار لها مسبقاً ابن خلدون في تفسير منطق القوة ، وكيفية تأسيس الدولة وفق منطق القوة . وقد عبّر السلطان الجديد عن سياسته في بناء الدولة " **وصرف همته الى تدبير الدولة واعتماد الحيلة قبل الصولة ، والترغيب دون الترهيب** " [٣٣] .

وهكذا نجد أن سلطنة بيبرس عبرت عن رغبة أكيدة وجامحة في تبني المماليك لمبدأ الحكم لمن غلب بصورة رسمية ومعلنة ، التي أصبحت فيما بعد سنة متبعة من قبل الامراء الذين يحيطون بالسلطنة .

ومن جانب آخر أدى مقتل قطز وتولي بيبرس السلطنة اعتماد أمراء المماليك على مماليكهم بحيث يكونون عدتهم في الصراع الذي يحدث ، فقد كان الامراء الكبار وولاة الاقاليم يمتلكون جيوشاً صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها بين ثلاثمائة وستمائة مملوك ، وأما السلاطين فقد كانت مماليكهم بمثابة الحرس السلطاني الخاص يهتمون بشراء أكبر عدد ممكن منهم[٣٤] .

وتجددت فكرة أن الامير الذي يقتل السلطان يكون سلطاناً ، فعندما قام الامير بيدرا وهو نائب السلطنة بقتل السلطان الاشرف خليل سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، اجتمع الامراء المتغلبون على أن يكون القاتل هو السلطان ، فحلفوا له بالسلطنة وقبلوا له الارض ولقبوه بالملك القاهر، لكنه لم يهنأ بذلك ففي طريقه الى استلام السلطنة تبعه مماليك الاشرف خليل فقتلوه [٣٥] .

كذلك احتل مبدأ الحكم لمن غلب عندما اعترض سنقر الحلبي نائب الشام على سلطنة السلطان المنصور قلاوون ، بسبب عزله للسلطان سلامش الذي في نظره السلطان الحقيقي والشرعي ، وأنه مغتصب للسلطنة ، فضلاً عن أن سنقر كان يرى أنه أحق بالسلطنة وأعلى مكانة منه [٣٦].

ونجد أن حجة الامراء المتنفذين في السلطة أن السلطان الموجود إما كونه ضعيف أو صغير السن ، والبلاد بحاجة الى سلطان قوي ، وهذه المرة كان الامير كتبغا هو من ينادي بهذه الحجة من أجل الظفر بالمنصب ، فقد تحدث قائلاً " **إنّ السلطان صغير السن وطمع فيه المماليك ، ومن الرأي أن يتولى المملكة سلطان كبير من الاتراك لقمع المماليك والعربان** "[٣٧] .

---

[٢٨] العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) : مسالك الابصار في ممالك الأمصار ، تحقيق كامل سلمان الجبوري ، دار الكتب العلمية ، ط ١ (بيروت : ٢٠١٠ م) ، ج ١٦ ، ص ٥٩٨ .

[٢٩] أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ .

[٣٠] النويري ، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) : نهاية الارب في فنون الأدب ، تحقيق مفيد قمحية ، دار الكتب العلمية ، (القاهرة :٢٠٠٤م) ، ج ٣٠ ، ص ١٣ .

[٣١] السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت: ١٩٩٧م) ، ج ١ ، ص ٥٢٠ .

[٣٢] محمد بن احمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط١١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار احياء الكتب العربية(القاهرة : ١٩٦٤م) ، ج ١ ، ص ٩٧ .

[٣٣] الدواداري ، التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشر وتقديم الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، الناشر الدار المصرية اللبنانية، ط١ (القاهرة: ١٩٨٧م) ، ص ٤٥ .

[٣٤] قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، ص ٨٢ .

[٣٥] أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٣٠ .

[٣٦] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٨٨ .

ولعل من بين مضامين القوة وفلسفتها عند المماليك ، أنه متى ما رأوا أن سلطانهم قد تفرد بالسلطنة دونهم ، وفضّل غيرهم من المماليك ، فتكون النتيجة مقتله على أيديهم ، لأنهم لا يريدون أن يروا سلطانهم الذي خدموه وأعانوه في الوصول الى السلطة أن يتخلى عنهم .

ومثال ذلك ما حصل مع العادل كتبغا ، فمن بين الاسباب التي أدت الى قتله تنامي نفوذ مماليكه حسام الدين لاجين وشمس الدين سنقر ، اللذين " **أمرا ونهيا وتحكما في الدولة ، وأفسدا نظام المملكة ، وغلبا على رأي مخدومهما ، وأساءا السيرة واحتجنا الاموال ، واستهانا بالأمراء ، واستبدا بالآراء ، وكان ذلك سبباً لتغير الامراء ، والاتفاق على قتله** "[٣٨] .

ولعل في مقولة امراء لاجين خير دليل على ما قدمناه من فرضية فلسفة القوة والشعور بخيبة الامل عند المماليك في حالة تخلي السلطان عنهم ، فعندما وقع اختيار الامراء على لاجين أن يكون سلطاناً أخذوا عليه العهود ، وقرر أن يكون كأحدهم ولا يحكّم عليهم أحداً ، ولا يستأثر بنفسه عنهم ، حينها قال له سيف الدين قفجق " **نخاف أن تقول هذا القول اليوم ، وفي غد تغيّره ، وتحكم علينا مماليكك ، ويجري لنا معهم ما جرى لنا من مماليك كتبغا !** "[٣٩] .

وهنا تكررت مسألة قتل السلطان من قبل أحد الامراء ، كما فعل الامير كرجي عندما قتل السلطان المتغلب لاجين ، وقد حصل اتفاق بين الامراء الذين نفذوا هذه المهمة ، أن يعاد السلطان الناصر للسلطنة ويكون الامير طغجي نائباً له ، إلّا أنّ الامير كرجي لم ينفذ هذا القرار متذرعاً بصغر سن الناصر بقوله " **يَا أُمَرَاء أَنا الَّذِي قتلت السُّلْطَان لاجين وَأخذت ثأر أستاذي ، وَالْملك النَّاصِر صَغِير مَا يصلح ، وَلَا يكون السُّلْطَان إِلَّا هَذَا وَأَشَارَ لطغجي وَأَنا أكون نَائِبه وَمن خَالف فدونه** " [٤٠] .

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا نجح بيبرس عندما قتل قطز في أخذ السلطنة ولم ينجح طغجي في ذلك ؟

للجواب على السؤال هناك عدة تفسيرات منها ، أن شخصية بيبرس تختلف عن شخصية طغجي ، وما قدمه بيبرس من شجاعة واقدام في قتال المغول ، تجعله رجلاً مشهوراً على غيره ، كذلك ظروف الدولة في سلطنة قطز هي غيرها في سلطنة لاجين ، فالأول الدولة لا زالت غير مستقرة وواضحة المعالم ، نتيجة الاخطار الخارجية وعدم وضح الرؤية ، فضلاً عن تدرج بيبرس في مناصب الدولة جعلته يمتلك رؤية سياسية ، أما في الثانية فإنّ الدولة في سلطنة لاجين كانت مضطربة ومتداخلة ، فالسلطان الشرعي مغيب ، والمتغلبون هم من يسيطرون على السلطنة ، ووجود انقسام كبير بين الامراء ، فالأمراء التابعون للناصر كانوا يطالبون بعودته ، أما الامراء المتنفذون فكان الخلاف واضحاً في تقاسم الصلاحيات ، والاستئثار بها دون الاخرين .

وقد أرجع الدكتور سرور[٤١] ذلك الاخفاق الى أن أنصار طغجي لم تكن لديهم القوة الكافية في الاحتفاظ بسلطته ، واستياء الجند لاشتراكه في قتل لاجين .

على أن طريقة برقوق في تولي السلطنة تشبه الى حد كبير ما فعله الناصر قلاوون حين أراد خلع أولاد بيبرس ، فاستغل صغر سن السلطان حاجي بن شعبان ودعا الى اجتماع ضم " **الْأُمَرَاء والقضاة ومشايخ الْعلم وَأهل الدولة والخليفة ... وعرفهم أَن الْأُمُور مضطربة لصغَر سنّ السُّلْطَان وَقلة حرمته وَأَن الْوَقْت مُحْتَاج إِلَى ملك عَاقل يستبد بأحوال الدولة وَيقوم بِأُمُور النَّاس وينهض بأعباء الحروب وَالتَّدْبِير وَنَحْو ذَلِك، فاتفقوا جَمِيعهم مَعَه على خلع الْملك الصَّالح حاجي ... فانقضت دولة الأتراك من مصر وزالت دولة بني قلاون** " [٤٢] .

---

[٣٧] ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٨٦ .

[٣٨] بيبرس ، مختار الاخبار ، ص ١٠٢ .

[٣٩] بيبرس ، مختار الاخبار ، ص ١٠٣ .

[٤٠] المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

[٤١] الدكتور محمد جمال الدين : دولة بني قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص ، دار الفكر العربي (القاهرة : ١٩٤٧ م)، ص ٤٠ .

[٤٢] المقريزي ، السلوك ، ج ٥ ، ص ١٤٠ .

وقد عبر ابن حجر[٤٣] عن كيفية سيطرة برقوق على السلطنة بقوله " **ولم تنتطح في ذلك عنزان ، وكان يعمل في تدبير المملكة ... الى أن أفنى المماليك الاشرفية نفياً وقتلاً ، وقرب الجراكسة وأبعد الترك** " .

كذلك كانت للقوة دور كبير في عزل السلطان فرج ، عندما قام شيخ المحمودي نائب دمشق بخلعه وقتله ، وتنصيب الخليفة المستعين مكانه ، وهي وسيلة في بقاء الفرصة واغتصاب السلطة لنفسه [٤٤] .

ولعل ما يثير الاستغراب أن دولة المماليك البرجية خطت لنفسها نهجاً جديداً في اختيار السلاطين من الجنس الجركسي حصراً ، فكان السلطان برقوق هو من أرسى قواعد هذا النظام ، فقد أكثر من جلبهم الى مصر حتى قيل في ذلك " **فلم يبق له معاند ، وصار له من المماليك الجراكسة عدد كبير جلبوا اليه من البلاد ، فرقاهم الى ما لم يخطر لهم ببال** " [٤٥] .

فضلاً عن أن الدولة أصبغت بصبغة العنصرية بمعنى سيادة العنصر الجركسي وذبول العنصر التركي ، وكذلك فإن أحد المختصين في التاريخ قد أطلق لقب الجركسية بدلاً من البرجية على دولتهم عندما تطرق الى سلطنة الظاهر برقوق قائلاً[٤٦] " **فإنّ بداية عهده تجعلنا نغلب صفة العنصر على صفة المكان ، فنفضل وصفها بدولة المماليك الجراكسة على وصفها بالدولة البرجية** " .

وهذا ينافي ما قامت عليه دولة المماليك البحرية التي يحسب لها أنها لم تكن تتحيز الى بني جنسها كما فعل السلطان المنصور قلاوون عندما أكثر من شراء المماليك البرجية ، حتى قيل في حقه " **وكان من محاسن الملك المنصور قلاوون أنه لا يميل الى جنس بعينه بل كان ميله الى من يتخيل فيه النجابة كائناً من كان** "[٤٧] .

وعلى الرغم من اعتماده على بني جنسه إلّا أنهم لم يكونوا بمستوى ثقته ، ففي سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م قامت مؤامرة تزعمها الامير علي باي للإطاحة به ، لكنها فشلت في ذلك الامر الذي أدى الى القبض عليه وقتله[٤٨] .

وهذه المؤامرة جعلت من برقوق يعيد النظر في اعتماده على العنصر الجركسي ، قابله في ذلك نصيحة زوجته التركية خوند الكبرى أرد التي حذرته مسبقاً من اقتناء الجراكسة بقولها " **اجعل عسكرك أبلق من أربعة أجناس ، تتر وجركس ، وروم وتركمان ، تستريح أنت وذريتك ، فقال لها : الذي كنت أشرت به عليّ هو الصواب ، ولكن هذا كان مقدراً ، ونرجو الله اصلاح الامر من اليوم** "[٤٩] .

على أن مبدا القوة في عصر المماليك الجراكسة قد أفقد أهميته بالنسبة للبحرية ، فلم يعد السلطان هو الاول بين أقرانه ، فجاءت مدة حكم السلطان في تعاقب سريع دل على أن الامراء هم من يولي ويعزل السلاطين ، وأدى ذلك في النهاية الى فساد النظام السياسي الذي حكمه تماماً مبدأ الحكم لمن غلب [٥٠] .

عكس ما كان معمولاً به في عصر المماليك البحرية ، الذين أولوا عناية فائقة في تربية المماليك وترقيتهم والتشديد عليهم ، ومثال ذلك ما فعله السلطان المنصور قلاوون مع مماليكه حتى أصبحت دالة على تلك الدولة " **لو لم يكن من محاسنه إلّا تربية مماليكه وكفّ شرهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله تعالى، فإنه كان بهم منفعة للمسلمين ومضرة للمشركين وقيامهم في الغزوات معروف ، وشرهم عن الرعية مكفوف** "، ويعاب على النظام المتبع عند المماليك البرجية بأنه " **بخلاف زماننا هذا ، فإنه مع قلتهم وضعف بنيتهم وعدم شجاعتهم ، شرهم في الرعية معروف ونفعهم عن الناس مكفوف** "[٥١] .

بل أن نظام التربية عند البرجية اختلف عن سابقه ، فقد استعاض السلاطين والامراء عن المماليك الاطفال الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب ، بالمماليك من الشباب اليافع الذين تخطوا سن البلوغ ، وقد عرف هؤلاء باسم

---

[٤٣] شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد (ت: ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) : أنباء الغمر بأبناء العُمر، تحقيق حسن حبشي، دار التحرير للطباعة والنشر، (القاهرة : ١٩٦٩م) ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

[٤٤] ابن تغري بردي ، مورد اللطافة ، ج ٢ ، ص ١٣٤ .

[٤٥] المقريزي ، السلوك ، ج ٥ ، ص ١٤٠ .

[٤٦] عاشور ، سعيد عبد الفتاح : الايوبيين والمماليك في مصر والشام ، دار النهضة العربية (القاهرة : ١٩٩٦ م) ، ص ٢٦٦ .

[٤٧] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢٧ .

[٤٨] المقريزي ، السلوك ، ج ٥ ، ص ٤١٨ .

[٤٩] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٨٨ .

[٥٠] قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، ص ١٤٦ .

[٥١] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢٨ .

الاجلاب ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن ضعفت رابطة الاستاذية التي كانت تربط بين المماليك وسيدهم الذي كان له الفضل في تربيتهم وتدريبهم منذ نعومة أظفارهم ، كما تخلخلت أواصر رابطة الخشداشية التي تجمع بين المماليك في اطار زمالتهم في طائفة بعينها من طوائف المماليك ، ومن ناحية أخرى ضعفت سيطرة الامراء والسلاطين على الجلبان مما أدى الى كثير من حوادث الشغب والاضطراب[٥٢] .

ومن مظاهر القوة في مفهوم المماليك الجراكسة هو انقلاب الاتابك على ابن استاذه ، ثم خلعه من السلطنة ، ويتولى هو السلطنة بدلاً عنه ، وفي هذا المجال أمثلة تدل على ما كان الاتابك والامير هو من يقود الدولة لا السلطان ، فبرقوق قام بخلع ابن استاذه (حاجي بن شعبان) وتولى السلطنة بدلاً عنه[٥٣] .
كذلك قيام السلطان المؤيد شيخ سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م بخلع الخليفة المستعين من سلطنة مصر، وأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالملك المؤيد[٥٤] ، وقيام السلطان الظاهر ططر بخلع احمد ابن المؤيد شيخ من الحكم [٥٥] .
وتكرر المشهد عندما خلع السلطان الأشرف برسباي ابن أتابكه محمد بن ططر سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م[٥٦] ، والحال نفسه مع جقمق الذي قام بانقلاب ضد العزيز يوسف بن برسباي وتولى السلطنة بدلاً عنه[٥٧] .

ثانياً ـ مفهوم الوراثة في النظام المملوكي

ترد أول اشارة الى نية المماليك في توريث السلطنة ، عندما عهد السلطان الظاهر بيبرس لولده بركة خان بالسلطنة ، ففي شوال سنة ٦٦٢ هـ / **" أركب الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان ، وخرج بنفسه في ركابه ، ولم يبق أحد من الامراء وأولياء الخدمة إلّا وعمته الخلع ، وزينت المدينة "** [٥٨].

ومن أجل الحفاظ على هذه الوصية والعهد ، أراد بيبرس أن يقطع الطريق على المنافسين لولده في السلطة لاسيما المنصور قلاوون الذي زادت مكانته في ظل دولته ، فعمد الى حيلة تجعله ـ في نظره ـ يصرف النظر عن الطمع في السلطنة ، ألا وهي مسألة الزواج عندما أراد تزويج ابنه الملك السعيد من غازية خاتون ابنة قلاوون ، على أمل أن يتراجع ولا يفكر مطلقاً بالسلطنة[٥٩] .
وعلى الرغم من معرفة بيبرس بولده ، لكن يبدو أن الوضع لا يستحمل المجازفة بمصير الدولة التي وضع أسسها ، لكنه نصحه نصيحة ذهبية تدل على حنكة ومعرفة بالمقابل ، واستلزام القوة بلا تردد **" انك صبي وهؤلاء الامراء الاكابر يرونك**

---

[٥٢] قاسم ، الدكتور قاسم عبده والدكتور علي السيد علي : الايوبيون والمماليك ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية (القاهرة : د . ت) ، ص ٢٠٧ .

[٥٣] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

[٥٤] العيني ، بدر الدين محمود(ت٨٥٥هـ/١٤٥٢م) : السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتوت ، دار الكتاب العربي (القاهرة : ١٩٦٧ م) ، ص ٢٥٩ .

[٥٥] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٧٨ .

[٥٦] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

[٥٧] ابن العماد ، عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق محمود الارناؤوط ، دار ابن كثير ، ط١ (بيروت : ١٩٨٦ م) ، ج ٩ ، ص ٣٥٢ .

[٥٨] بيبرس ، مختار الاخبار ، ص ٢٩ .

[٥٩] أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٩ .

بعين الصبي، فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه، فاضرب عنقه في وقته ولا تعتقله ولا تستشر احداً في هذا ، وافعل ما امرتك به والا ضاعت مصلحتك "[٦٠] .

وهذه الوصية تحمل من المعاني التي تؤكد على عدم احترام المماليك للعهد السياسي مهما كان الموصي وتاريخه ، فالميزان عندهم ما يقتنعون به من مؤهلات وقوة المرشح فضلاً عن ما له من أتباع ، والدليل على ذلك ما ذكره المنصور قلاوون متظاهراً ببقاء السلطنة في بيت بيبرس عندما طلب منه أن يتولى السلطنة بعد عزل بركة خان قائلاً " **أنا لم اخلع الملك السعيد شرهاً إلى المملكة ولا طمعاً في السلطنة ، ولكن حفظاً وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليهم الأصاغر ويمتهنوا منهم الأعيان والأكابر و يضيعوا عليهم مصالح العساكر ، والأولى أن لا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر "**[٦١] .

على أن مقولة قلاوون لا تعني احترامه لمبدأ وراثة العرش ، بالعكس فقد كان يرمي من وراء ذلك الى اتاحة الفرصة لنفسه من أجل السيطرة على الجيش وابعاد الامراء الموالين لأسرة بيبرس عن مناصب الدولة [٦٢] .

وهكذا نرى أنه عدل عن ذلك الرأي بعد أن استمال كبار الامراء اليه ، ووثق من نفسه في السيطرة على الحكم ، فعلّق على سلطنة سلامش قائلاً "**لا فائدة في بقاء ذلك الصبي الصغير لانتشار السمعة في البلاد وامتهان الحرمة في أنفس الحواضر والبوادي "**[٦٣] .

ويبدو أن تولية سلامش للسلطة جاء بسبب تسكين ثورة المماليك الظاهرية باعتبار كانوا نعظم الجيش المصري ، فضلاً عن أن بعض القلاع كانت بيد نواب السلطان السعيد ، فأرادوا عزلهم منها بحجة تولية سلطان جديد [٦٤].

وبعزل سلامش أصبح الطريق مهيئاً لقلاوون الذي عبر عن الارادة الحقيقية للمماليك بأنهم لا يقيمون وزناً للوراثة بقدر ما يولون أهمية للشجاعة والمقدرة وكثرة الموالين .

وذهب الدكتور عاشور[٦٥] الى تفسير ما قام به قلاوون من ابطال ولاية العهد في بيت بيبرس الى عامل الشك والتحاسد باعتبار أن المماليك متساوون لا فضل لأمير على آخر ، فقد أحس بيبرس بشعور الغيرة عندما وجد احد زملاءه وهو بيبرس يتولى منصب السلطنة ، وإن كان قلاوون لم يستطع أن يعبر عن ذلك الشعور لقوة بيبرس ودهائه . بدليل أن كبار الامراء كان لهم رأي في سلطنة بيبرس " **فإنهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ويرون أنهم أحق منه بالملك "**[٦٦] .

دخلت دولة المماليك البحرية في مرحلة جديدة من ولاية العهد بصورة أكثر وضوحاً وصراحةً ، عندما أسند المنصور قلاوون السلطنة لأولاده ، ويبدو أنه كان متناسياً ما فعله السلطان بيبرس من فكرة ولاية العهد ، بل وحتى اعتراضه على ذلك الى أن أصبح نفسه سلطاناً ، لكن أراد أن يكون الحكم في بيته لما قدم من منجزات على الصعيد الداخلي والخارجي .

فبدايةً كانت لولده علاء الدين الملقب بالملك الصالح ، وكتب التقليد له بولاية العهد " **الحمد لله الذي شرف سرير الملك منه بعلية وحاط منه بوصية ، وعضّد منصوره بولاية عهد صالحه ... وبعد فإنّ خير من شرّفت مراتب السلطنة بحلوله ... ومن يزدهي ملك منصوره نصره الله بولده وولي عهده مكنة بانيه ، ومن يتشرف ايوان عظمته إن غاب والده في مصلحة الاسلام فهو صدره ، وإن حضر فهو ثانيه ... فلذلك خرج الامر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري السيفي ... أن**

---

[٦٠] ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله المازني (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) : مفرج الكروب في مناقب بني أيوب، تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب (القاهرة : ١٩٧٢م) ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ .

[٦١] الدواداري ، زبدة الفكرة زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق ، دونالد . س . ريتشارد ، الشركة المتحدة (بيروت : ١٤١٩ هـ) ، ج ٩ ، ص ٧٤ .

[٦٢] سرور ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة : ١٩٣٨ م) ، ص ١٣٠ .

[٦٣] الدواداري ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٧٤ .

[٦٤] اليونيني ، موسى بن محمد بن احمد بن قطب الدين البعلبكي(ت٧٢٦ هـ/١٣٣٨م) : ذيل مرآة الزمان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية (الدكن : ١٩٦١ م) ، ج ٤ ، ص ٨ .

[٦٥] الايوبيين والمماليك ، ص ٢٢٢ .

[٦٦] المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

يفوض اليه ولاية العهد وكفالة السلطنة المعظمة ولاية تامة عامة شاملة كاملة شريفة منيفة عطوفة رؤوفة في سائر أقاليم الممالك" [٦٧].

ثم استقرت عند الاشرف خليل[٦٨] ، الذي واجه مؤامرة كبيرة كادت أن تطيح به لولا أنه اتخذ سبيلاً آخر للحفاظ على سلطنته عندما قام بتحرير عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩٢ م ، وهذا المنجز كان له ثقل في الوسط السياسي ، مما عزز مكانته وتحرر من سطوة الامراء المتغلبين[٦٩] .

وعلى الرغم من ذلك كان للرؤية السياسية المتمثلة بالقوة والغلبة كلمتها في تحديد شكل ونوع السلطة ، فتم اغتياله سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م بمكان يقال له الحمامات عندما كان في رحلة الصيد ، وعند وصوله الى تروجة[٧٠]، أرسل بيدرا الى الامراء الناقمين على السلطان، فهجموا عليه وضربوه بالسيف حتى مات، وتركوه في مكان مصرعه[٧١] .

وهنا لا بد من الحديث عن نظام ولاية العهد لاسيما في أسرة قلاوون ، فالناظر أن هذه الاسرة حكمت لمدة تقرب على القرن ، فكيف يقال أن نظام الحكم كان على مبدأ القوة والحكم لمن غلب ؟

قد يكون الكلام صائباً في حالة أن الدولة تبنت هذا الخيار وعملت به ، لكن نجد أن العمل بالوراثة لم يكن مقصوداً بمعناه الضيق ، فأسرة قلاوون لم تحكم بناءً على ولاية العهد ، بل جاء وفق رغبات الامراء المتنفذين الذين كانوا يحكمون باسم السلطان ، أي أنهم من يختار السلطان ويتحكمون به وبمقدرات الدولة داخلياً ، فحادثة اغتيال الاشرف خليل ، لم يعهد في حياته لابنه أو حتى لأحد من أسرته ، بل جاء اختيار أخيه الناصر قلاوون سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م من قبل المتسلطين على المشهد لصغر سنه ، وحتى يكون خارج دائرة التأثير، حتى أنهم اختاروا له نائباً السلطنة[٧٢] .

بل تعدى الامر بالأمراء المتغلبين أن يرسلوا كتاباً على لسان الاشرف خليل المقتول الى دمشق لانهم لم يعرفوا خبر مقتله ، وكان مفاد الكتاب هو " **آنا قد استنبنا أخانا الملك الناصر محمداً وجعلناه ولي عهدنا ، حتى إذا توجهنا الي لقاء عدو يكون لنا من يخلفنا ، ورسم فيه بتحليف الناس للملك الناصر محمد وأن يقرن اسمه باسم الاشرف في الخطبة** "[٧٣] .

وهذا يفسر رغبة الامراء في التحكم بالمشهد بشتى الوسائل ، لذلك نجد أن الامراء المتنفذين لم يقروا بنظام ولاية العهد لبيت قلاوون ، بل أنهم رضخوا لذلك النهج بناءً على معطيات المرحلة وللحفاظ على نفوذهم ، فنجد اختيارهم يدل على ذلك " **الذين اجمعوا أمرهم على أن تكون السلطنة للسلطان الملك الناصر أخي السلطان الملك الأشرف حفظا لنظام البيت المملوكي ورعاية في الحي حق الميت** "[٧٤] .

والدليل على ذلك أنهم لما رأوا تنامي خطر السلطان الصغير الناصر قلاوون على مكانتهم ، قام لاجين بتحريض كتبغا من أجل عزل الناصر ويكون بمحله في السلطنة ، لاسيما أن المماليك الاشرفية لا يتركون دم سلطانهم الاشرف لان هم من قتله ، ومن جملة ما قاله " **متى كبر الملك الناصر لا يبقيك البتّة، ولا يبقي أحداً ممّن تعامل على قتل أخيه الملك الأشرف، وأنّ**

---

[٦٧] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٠ ، ص ١٧٧ ـ ١٧٩ .

[٦٨] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

[٦٩] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥٧ .

[٧٠] تروجة : وقيل أن اسمها ترنجة قرية بمصر من كورة البحيرة من اعمال الاسكندرية ، تشتهر بزراعة الكمون ، ينسب اليها مجموعة من العلماء . ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٧ – ٢٨ .

[٧١] ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق احمد يوسف نجاتي (القاهرة : ١٩٥٦م) ، ج٣، ص٦٥.

[٧٢] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

[٧٣] المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

[٧٤] ابن أبي الفضائل ، المفضل بن أبي الفضائل المصري (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) : النهج السديد والدرر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (ذيل تاريخ ابن العميد)، تحقيق بلوشيه (باريس: ١٩١٩م) ، ص ٥٧٤ .

هؤلاء الأشرفيّة ما دام الملك الناصر محمد في الملك شوكتهم قائمة، والمصلحة خلعه وسلطنتك، فمال كتبغا إلى كلامه، غير أنّه أهمل الأمر وأخذ في تدبير ذلك على مهل، فلمّا وقع من الأشرفيّة ما وقع وثب وطلب الخليفة والقضاة حسب ما ذكرناه. ولمّا حضر الخليفة والقضاة واتّفق رأى الأمراء والجند على خلع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من الملك وسلطنة كتبغا هذا عوضه؛ فوقع ذلك وخلع الملك الناصر محمد من السلطنة وتسلطن كتبغا وجلس على تخت الملك " [٧٥].

كذلك من البراهين على أن أسرة قلاوون لم تؤمن بالوراثة في حكمها وإن حكموا وفق هذا الاسم ، إلا أن السلاطين في تلك الحقبة لم يكونوا أقوياء بل كانوا ضعفاء ، مثال ذلك السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر وغيره من السلاطين[٧٦] .

وذهبت الدكتورة الحجي[٧٧] الى ما أشرنا اليه مسبقاً عن سبب اختيار أولاد واحفاد الناصر من قبل الامراء دون أن تكون لهم فرصة اختيار أحدهم ، ذلك أن كبار الامراء كانوا على قدم المساواة في القوة والمكانة والنفوذ ، وعدم جلوس أحدهم على كرسي السلطنة بسبب عدم وجود مميز من بينهم ليستلم السلطنة ، لذلك كان الوضع الانسب هو تعيين سلطان من أسرة قلاوون ، بينما يقنع بقية الامراء بما لديهم من صلاحيات واسعة في السلطة والادارة في تولي المناصب المهمة ، وهم بذلك ضمنوا لأنفسهم أسباب المنافع دون أن يتشجموا عناء الصراع المسلح .

ويبدو أن المماليك البرجية كانوا أكثر تشدداً من البحرية في مسألة الوراثة بسبب الطبيعة العسكرية التي كانوا عليها ، فقد رفضوا هذا الاجراء وعدوه غريباً عنهم بدليل أن السلاطين البرجية تسلطنوا من خلال القوة والغلبة ، لذلك وصفت تلك السياسة تجاه الوراثة " **وقد شدد البرجية أكثر مما شدد البحرية أنفسهم على عدم التسليم بقاعدة الاستخلاف الوراثي، فالسلطان في عرفهم لم يكن إلا أميراً بين أمراء أكفاء ، والسلطة الحقيقية هي بأيدي قواد الجيش** "" [٧٨].

وجرت محاولات لتوريث السلطنة في دولة المماليك البرجية ، فعندما دنا اجل بالسلطان الظاهر برقوق وتحديداً يوم الخميس الرابع عشر من شوال سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م عمل مجلساً ضم الخليفة العباسي المتوكل والقضاة الاربعة وسائر الامراء ، فحدثهم في العهد لأولاده ، فبدأ الخليفة بالحلف للأمير فرج بن السلطان وأنه هو السلطان بعد وفاة أبيه ، ثم تبعه بالحلف القضاة والامراء ، وأضافوا في الحلف أن يكون بعد فرج أخوه عبد العزيز ثم ابراهيم[٧٩].

ولعل محاولة السلطان برقوق أن يبقي السلطنة في أسرته كما فعل قلاوون عن طريق التوريث ، إلّا أن الامراء لم يكونوا راضين على هذه الخطوة فيما بعد ، وما موافقتهم على خطوته في توريث السلطنة إلّا بسبب فضله عليهم [٨٠] .

لكن اعتلاء فرج للسلطنة لم يكن مقبولاً عند الامراء ، فنجد المعارضة واضحة على لسان أحد الامراء قائلاً " **إنّ السلطان صغير ، وكل ما يصدر ليس هو عنه ، وإنما هو عن الامراء ، وأنا وصيّ السلطان لا يعمل أحدا شيئاً إلا بمراجعتي** "[٨١] .

كذلك كان للأمراء الخاصكية بقيادة يشبك الخازندار رأي في سلطنته ، فكان ليس كأبيه بل حاد عن جادة الصواب بكثرة شربه للخمار ، حتى أنه في تلك الايام التي خلعوه من السلطنة ، كان ثملاً وتكلم بكلام يذم فيه الجراكسة ، على الرغم من أنهم قوم أبيه وشوكة دولتهم ، مما اضطر الامراء الى تحشيد قوتهم واسقاط سلطنة فرج في سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، وقاموا بتنصيب أخيه عبد العزيز[٨٢] .

وعلى الرغم من عودة فرج للسلطنة مرة ثانية وبقاؤه فيها لمدة طويلة ، إلّا أن الامراء لم يكونوا مقتنعين به ، والدليل أنهم بقوا يناصبون له العداء لكن ما شغلهم عن خلعه نتيجة سببين ، الاول هو لانشغالهم في اعداد الجيوش لصد هجوم المغول على بلاد الشام ، والثاني أن شخصية السلطان برقوق كمؤسس لدولة المماليك البرجية بقت مدة طويلة ذات أثر في أذهان مماليكه ، فلم يفكر أحد منهم في خلع السلطان الجديد فرج دون أن يعرض نفسه لمنافس خطير من حزب آخر[٨٣] .

---

[٧٥] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٤٩ .

[٧٦] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٨٦ وما بعدها .

[٧٧] حياة : السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم سلاطين المماليك البحرية ، المجلس الوطني الاعلى للثقافة والفنون والآداب (الكويت : ١٩٩٧ م) ، ص ١٦ .

[٧٨] حتي ، فيليب : تاريخ العرب ، دار الكتاب (بيروت : د . ت)، ج ٣ ، ص ٣ ، ص ٨١٩ .

[٧٩] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٠٢ .

[٨٠] عبد السيد ، الدكتور حكيم أمين : قيام دولة المماليك الثانية ، الدار القومية للطباعة والنشر (القاهرة : ١٩٦٦ م) ، ص ١٠٨ .

[٨١] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٧٦ .

[٨٢] المقريزي ، السلوك ، ج ٦ ، ص ١٤٣ .

[٨٣] عبد السيد ، قيام الدولة الثانية ، ص ١١٠ .

ولعل من بين الاسباب التي أدت الى اهمال مبدأ الوراثة في عصر المماليك الجراكسة ، الحفاظ على تولية ابن السلطان المتوفى لمدة قصيرة جداً ، فأصبح من الصعب على المماليك أن ينقلوا ولاءهم من سلطان الى آخر ، فقد أصبح المماليك المشتروات المعروفون بالاجلاب أو الجلبان الدعامة الوحيدة التي يستند عليها السلطان في مقاومة الفئات الاخرى من المماليك السلطانية[٨٤] .

ويفسر موير[٨٥] سبب عدم نجاح نظام الوراثة عند المماليك بقوله " **وهناك صفة أخرى اختص بها المماليك وهي عدم عنايتهم بالوراثة ، فكان المملوك المحبوب يخلف سيده على العرش ، وأحياناً يسمي نفسه ابن سيده ، وفي أغلب الاحوال كان يرث التاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم ، فلا يلبث أن يخلعه أتابكه أو أمير لآخر يكون قد تآمر عليه** " . وهذا يعني أن نظام الاسرة كان معدوماً في عرف المماليك ، على الرغم من أنهم كانت لديهم زيجات وأولاد ، أي أنهم لم يفهموا المعنى الحقيقي للأسرة ، فقد استعاضوا عنه بمصطلح الخشداشية التي تعني الزمالة أو الاخوة . كذلك فإنّ الجانب الانساني في العلاقات المملوكية لم يقم على الترابط الاسري أو القبلي بحكم تنوع وتعدد أصولهم ، بل كان قائماً على احترام القوة والزعامات ، والارتباط المبكر بين المملوك وسيده [٨٦] .

ويرى ريمون[٨٧] أن سبب فشل نظام الوراثة عند المماليك هو بسبب نظام الفروسية الذي نشأ عليه المماليك ، الذي يقوم على الجدارة والقوة والشجاعة والاقدمية . ويرى بدوي[٨٨] أن نظام الحكم عند المماليك " **نظام أقرب شبهاً بحكومة الاشراف في اليونان القديمة** " .

الخاتمة

في نهاية الحديث عن موضوع فلسفة الحكم عند المماليك بين القوة والتوريث ، كان لا بد من تسجيل أهم النتائج التي توصلت اليها الدراسة .

١ ـ كان لنشأة المماليك العسكرية وتدرجهم في وظائف الجيش أثراً كبيراً في التخطيط لقيام دولتهم .

٢ ـ لم يكن للمماليك نظام خاص في تبني مفهوم الحكم ، إلّا أنه يستفهم من خلال الطبيعة الخاصة بهم أنّ القوة كانت هي الاساس في تولي الشخص السلطنة .

٣ ـ جاء مفهوم القوة عند المماليك أن الامير أو النائب متى ما امتلك المؤهلات القيادية من حيث القوة والشخصية ، وقدرته على كسب أكبر عدد ممكن من المماليك عندها تصبح قوته هي المسيطرة على المشهد .

٤ ـ كذلك نجد أن الانجازات العسكرية واحدة من ضمن مفاهيم القوة عند المماليك ، فساحة المعركة كانت خير تقييم للمماليك في التقدم وتحمل المسؤولية ، والمثال على ذلك بطولات قطز وبيبرس .

٥ ـ لم يؤمن المماليك بالعموم بمفهوم الوراثة ، ولم يعيروا له أهمية في نظام الحكم ، بل كانت القوة المقيدة هي من تأتي بالسلطان ، الذي يفرض نفسه على زملاءه في الخدمة .

---

[٨٤] العريني ، الدكتور السيد الباز : المماليك ، دار النهضة العربية (بيروت : ١٩٦٧ م) ، ص ٢٦١ .

[٨٥] السير وليم : تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، الناشر مكتب مدبولي، ط١ (القاهرة: ١٩٩٥م)، ص ٢٠٤ .

[٨٦] فكري ، وليد : دم المماليك النهايات الدامية لسلاطين المماليك ، دار الرواق للنشر والتوزيع ، ط ١ (القاهرة : ٢٠١٦ م) ، ص ١٤ .

[٨٧] أندريه : القاهرة تاريخ وحضارة ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع (بيروت : ١٩٩٤ م) ، ص ١٠٧ .

[٨٨] جمال : الصعاليك على عرش مصر نظرات في تاريخ المماليك ، الزهراء للإعلام العربي ط ١ (القاهرة : ١٩٩٦ م)، ص ١٣ .

٦ ـ جاءت الوراثة في النظام المملوكي في حالات استثنائية ، قابلها عدم رضا الامراء ومن معهم من المماليك على هذا التوجه .
٧ ـ فالوراثة في عهد بيبرس كانت مجرد وصية لم يكتب لها النجاح ، فسرعان ما تم إجهاضها من قبل كبار الامراء ، لان ذلك المفهوم غريب عنهم .
٨ ـ أما في أسرة قلاوون فلم يكن لمبدأ الوراثة أي وزن ، فلسلاطين من ابناءه جاءوا الى الحكم عن طريق رغبة الامراء الاقوياء والمتنفذين ، وليس على أساس الوراثة .
٩ ـ وبالعموم فإنّ السلاطين الذين جاءوا في ظروف معينة عن طريق التوريث كانوا سلاطين ضعفاء ، لم يكتب لهم الاستمرار طويلاً ولم يقدموا شيئاً على مستوى الانجاز .

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر الاولية :

ابن اياس ، محمد بن احمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) :
١ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط١١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار احياء الكتب العربية(القاهرة : ١٩٦٤م) .
ابن تغري بردي ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/١١٦٩م) :
٢ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق احمد يوسف نجاتي (القاهرة : ١٩٥٦م) .
٣ ـ مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة ، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ، دار الكتب المصرية (القاهرة : د . ت) .
٤ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١ ، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة : ١٩٣٢م) .
ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) :
٥ ـ أنباء الغمر بأبناء العُمر، تحقيق حسن حبشي، دار التحرير للطباعة والنشر، (القاهرة : ١٩٦٩م) .
ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ه /ـ١٤٠٥م) :
٦ ـ المقدمة ، دار العلم للطباعة والنشر (بيروت، ١٩٥٢) .
الدواداري ، بيبرس المنصوري (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م) :
٧ ـ التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشر وتقديم الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، الناشر الدار المصرية اللبنانية، ط١ (القاهرة : ١٩٨٧م) .
٨ ـ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق ، دونالد . س . ريتشارد ، الشركة المتحدة (بيروت : ١٤١٩ هـ) .
٩ ـ مختار الاخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ ، تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، الناشر الدار المصرية اللبنانية، ط١ (القاهرة : ١٩٩٣م) .
أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ، ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) :
١٠ ـ تراجم رجال القرنيين المعروف بالذيل على الروضتين , دار الكتب العلمية (بيروت : ٢٠٠٢م) .
ابن العماد ، عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) :
١١ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق محمود الارناؤوط ، دار ابن كثير ، ط١ (بيروت : ١٩٨٦ م) .
العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) :
١٢ ـ مسالك الابصار في ممالك الأمصار ، تحقيق كامل سلمان الجبوري ، دار الكتب العلمية ، ط ١ (بيروت : ٢٠١٠ م) .
العيني ، بدر الدين محمود(ت٨٥٥هـ/١٤٥٢م) :
١٣ ـ السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتوت ، دار الكتاب العربي (القاهرة : ١٩٦٧ م) .
أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) :
١٤ ـ المختصر في أخبار البشر ، ط١ المطبعة الحسينية (القاهرة: د. ت) .
ابن أبي الفضائل ، المفضل بن أبي الفضائل المصري (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) :
١٥ ـ النهج السديد والدرر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (ذيل تاريخ ابن العميد)، تحقيق بلوشيه (باريس: ١٩١٩م) .
الفيروز أبادي ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م) :
١٦ ـ القاموس المحيط ، تحقيق مكتب تحقيق التراث ، ط ٨ ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت : ٢٠٠٥ م) .
القلقشندي ، أبو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) :
١٧ ـ صبح الاعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة: د. ت) .
المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) :
١٨ ـ السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت: ١٩٩٧م) .
١٩ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف (بالخطط المقريزية)، الناشر مكتبة الآداب (القاهرة: د. ت) .
ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) :
٢٠ ـ لسان العرب ، دار صادر ، (بيروت : ١٩٦٨م) .
النويري ، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) :
٢١ ـ نهاية الارب في فنون الأدب ، تحقيق مفيد قمحية ، دار الكتب العلمية ، (القاهرة :٢٠٠٤م) .

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله المازني (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) :
٢٢ ـ مفرج الكروب في مناقب بني أيوب، تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب (القاهرة : ١٩٧٢م) .
ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) :
٢٣ ـ معجم البلدان ، دار صادر (بيروت: ١٩٩٥م) .
اليونيني ، موسى بن محمد بن احمد بن قطب الدين البعلبكي(ت٧٢٦ هـ/١٣٣٨م) :
٢٤ ـ ذيل مرآة الزمان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية (الدكن : ١٩٦١ م) .
ثانياً ـ المراجع الحديثة :
بدوي ، جمال :
٢٥ ـ الصعاليك على عرش مصر نظرات في تاريخ المماليك ، الزهراء للإعلام العربي ط ١ (القاهرة : ١٩٩٦ م) .
حتي ، فيليب :
٢٦ ـ تاريخ العرب ، دار الكتاب (بيروت : د . ت) .
الحجي ، حياة ناصر:
٢٧ ـ السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم سلاطين المماليك البحرية ، المجلس الوطني الاعلى للثقافة والفنون والآداب (الكويت : ١٩٩٧ م) .
ريمون ، أندريه :
٢٨ ـ القاهرة تاريخ وحضارة ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع (بيروت : ١٩٩٤ م) .
زيادة ، الدكتور نقولا :
٢٩ ـ دمشق في عصر المماليك ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٦٦م) .
سرور ، الدكتور محمد جمال الدين :
٣٠ ـ دولة بني قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص ، دار الفكر العربي (القاهرة : ١٩٤٧ م) .
٣١ ـ الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة : ١٩٣٨ م) .
سليم ، محمود رزق :
٣٢ ـ عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي مكتبة الآداب ، ط ٢ (القاهرة : ١٩٦٢ م) .
عاشور ، سعيد عبد الفتاح :
٣٣ ـ الايوبيين والمماليك في مصر والشام ، دار النهضة العربية (القاهرة : ١٩٩٦ م) .
٣٤ ـ العصر المماليكي في مصر والشام ، النهضة المصرية ، ط ١ (القاهرة : ١٩٦٥ م) .
عبد السيد ، الدكتور حكيم أمين :
٣٥ ـ قيام دولة المماليك الثانية ، الدار القومية للطباعة والنشر (القاهرة : ١٩٦٦ م) .
العريني ، الدكتور السيد الباز :
٣٦ ـ المماليك ، دار النهضة العربية (بيروت : ١٩٦٧ م) .
فكري ، وليد :
٣٧ ـ دم المماليك النهايات الدامية لسلاطين المماليك ، دار الرواق للنشر والتوزيع ، ط ١ (القاهرة : ٢٠١٦ م) .
قاسم ، الدكتور قاسم عبده :
٣٨ ـ عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ط ١ (القاهرة : ١٩٩٨ م) .
قاسم ، الدكتور قاسم عبده والدكتور علي السيد علي :
٣٩ ـ الايوبيون والمماليك ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية (القاهرة : د . ت) .
موير ، السير وليم :
٤٠ ـ تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، الناشر مكتب مدبولي، ط١ (القاهرة: ١٩٩٥م) .